

حَمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلِبِ أَسَدُ اللَّهِ، وَسَيِّدُ الشُّهَدَاءِ

كانت مَكَّةُ تَغُطُّ في نومها، بعد يوم مُلئٍ بالسعي، وبالكَدِّ،
وبالعبادة، وباللهو..

والقُرَشيون يتقلَّبون في مضاجعهم هاجعين... غير واحد هناك
يَتَجَأَفَى عن المضجعِ جَنَبَاهُ، يَأْوِي إلى فراشه مبكراً، ويستريح
ساعات قليلة، ثم ينهض في شوق عظيم؛ لأنه مع الله على موعد،
فيَعْمَدُ إلى مُصَلَّاهُ في حجرته، ويظل يناجي ربه ويدعوه.. وكلما
استيقظت زوجته على أزيز صدره الضَّارِعِ وابتهالاته الحارَّةِ
المُلِحَّةِ، وأخذتها الشفقة عليه، ودعته أن يرفُقَ بنفسه، ويأخذ حظه
من النوم - يجيئها ودموع عينيه تُسابقُ كلماته:

«لقد انقضى عهدُ النوم يا خديجة...!!!»

لم يكن أمره قد أرقَّ قريشاً بعد، وإن كان قد بدأ يشغل انتباهها؛ فلقد كان حديث عهد بدعوته، وكان يقول كلمته سراً وهماً.

كان الذين آمنوا به يومئذ قليلين جداً..
وكان هناك من غير المؤمنين به من يحمل له كل الحب والإجلال، ويطوى جوانحه على شوق عظيم إلى الإيمان به والسير في قافلته المباركة. لا يمنعه سوى مواضع العُرف والبيئة، وضغوط التقاليد والورثة، والتردد بين نداء الغروب، ونداء الشروق.

من هؤلاء كان حمزة بن عبد المطلب.. عم النبي صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة.

كان «حمزة» يعرف عَظَمَةَ ابن أخيه وكَمَالَهُ.. وكان على بينة من حقيقة أمره، وجوهر خصاله..

فهو لا يعرفه معرفة العم بابن أخيه فحسب.. بل يعرفه معرفة الأخ، والصديق... ذلك أن الرسول وحمزة من جيل واحد،

وسنّ متقاربة.. نشأ معاً، ولعباً معاً، وتآخياً معاً، وساراً معاً على
الدرب من أوله خطوة خطوة..

ولئن كان شباب كل منها قد مضى في طريق - فأخذ «حمزة»
يزاحم أنداده في نيل طيبات الحياة، وإفساح مكان لنفسه بين
زعماء مكة وسادات قريش.. في حين عكف «محمد» على أضواء
روحه التي انطلقت تُنير له طريق الله وعلى حديث قلبه الذي نأى
به من ضوضاء الحياة إلى التأمل العميق، وإلى التهيؤ لمصافحة
الحق وتلقّيه..

نقول: لئن كان شباب كل منها قد اتخذ وجهةً مغايرة، فإن
«حمزة» لم تغب عن وعيه لحظةً من نهار فضائل تربيته وابن أخيه..
تلك الفضائل والمكارم التي كانت تحل صاحبها مكاناً علياً في
أفئدة الناس كافةً، وترسم صورة واضحة لمستقبله العظيم.

في صبيحة ذلك اليوم، خرج «حمزة» كعادته.

وعند الكعبة وجد نقرأ من أشرف قريش وسادتها فجلس
معه، يستمع لما يقولون..

كانوا يتحدثون عن «محمد»...

ولأول مرة رآهم «حمزة» يستحوذ عليهم القلق من دعوة ابن

أخيه.. وتظهر في أحاديثهم عنه نبرة الحقد، والغيظ، والمرارة.
لقد كانوا من قبل لا يُبالون، أوهُم يتظاهرون بعدم المبالاة
والاكتراث

أما اليوم، فوجوههم تموج موجًا بالقلق، والهَمُّ، والرغبة في
الافتراس.

وضحك «حمزة» من أحاديثهم طويلاً.. ورماهم بالمبالغة، وسوء
التقدير...

وعَقَّب أبو جهل مؤكداً لجلسائه أن «حمزة» أكثر الناس علماً
بخطر ما يدعو إليه «محمد» ولكنه يريد أن يُهَوِّن من الأمر حتى
تنام قريش، ثم تصبح يوماً، وقد ساء صَبَاحُهَا، وظهر أمرُ
ابن أخيه عليها..

وَمَضَوْا في حديثهم يُزَجِّجُونَ، ويتوعدون.. و«حمزة» يبتسم
تارة، ويمتعض تارة أخرى، وحين انفَضَّ الجمع وذهب كُلُّ إلى
سبيله، كان «حمزة» مُثَقِّل الرأس بأفكار جديدة، وخواطر
جديدة، راح يستقبل بها أمر ابن أخيه، ويناقشه مع نفسه من
جديد...!!!

* * *

ومضت الأيام، ينادى بعضها بعضاً ومع كل يوم تزداد هَمَمَةٌ
قريش حول دعوة الرسول..

ثم تتحوّل الهمهمة إلى تحرّش، و«حمزة» يرقّب الموقف من
بعيد..

إن ثبات ابن أخيه ليّنه... وإن تفانيه في سبيل إيمانه ودعوته
هو شيء جديد على قريش كلها، برغم ما عُرِفَتْ به من تفانٍ
وصمود..!!

ولو استطاع الشك يومئذ أن يخدع أحداً عن نفسه في صدق
الرسول وعظمة سجاياه، فما كان هذا الشكُّ بقادر على أن يجد
إلى وعى «حمزة» منفذاً أو سيلاً..

فحمزة خير من يعرف محمداً - من طفولته الباكّة.. إلى
شبابه الطاهر.. إلى رجولته الأمانة السامقة..

إنه يعرفه كما يعرف نفسه، بل أكثر مما يعرف نفسه. ومنذ
جاء إلى الحياة معاً.. وترعرعا معاً.. وبَلُغا أشدهما معاً.. وحياة
محمد كلها نقية كأشعة الشمس..!! لا يذكر حمزة شبهة واحدة
ألّت بهذه الحياة.. لا يذكر أنه رآه يوماً غاضباً، أو قانطاً، أو
طامعاً، أو لاهياً، أو مهزوزاً..

وحزمة لم يكن يتمتع بقوة الجسم فحسب، بل وبرجاجة العقل،
وقوة الإرادة أيضًا..

ومن ثم لم يكن من الطبيعي أن يتخلف عن متابعة إنسان
يعرف فيه كل الصدق وكل الأمانة.. وهكذا طوى صدره إلى حين
على أمر سيتكشف في يوم قريب..

* * *

وجاء اليوم الموعود...

وخرج «حزمة» من داره، مُتوشِّحًا قَوْسَهُ، مُيَمِّمًا وَجْهَهُ شَطْرَ
الفلاة ليمارس هوايته المحببة، ورياضته الأثيرة - الصيد.. وكان
صاحب مهارة فائقة فيه..

وقضى هناك بعض يومه.. ولما عاد من قنصه، ذهب كعادته إلى
الكعبة ليطوف بها قبل أن يَقْفِلَ راجعًا إلى داره.

وقريبًا من الكعبة، لقيته خادم لعبد الله بن جُذعان...

ولم تكد تبصره حتى قالت له:

«يا أبا عُمارة.. لو رأيت ما لقي ابنُ أخيك محمد أنفًا،
من أبي الحكم بن هشام.. وجَدَه هناك جالسًا، فأذاه،
وسبَه، وَبَلَغَ منه ما يَكْرَهُ»..

ومضت تشرح له ما صنع أبو جهل برسول الله..

واستمع حمزة جيداً لقولها، ثم أطرق لحظة، ثم مد يمينه إلى قوسه فثَبَّتَهَا فوق كتفه.. ثم انطلق في خطأ سريعة حازمة صَوَّبَ الكعبة، راجياً أن يلتقى عندها بأبي جهل.. فإن هو لم يجده هناك، فسَيَتَابِعُ البحث عنه في كل مكان حتى يُلاقِيه..

ولكنه لا يكاد يبلغ الكعبة، حتى يُبصر أبا جهل في فِئائها يتوسطُ نفرًا من سادة قريش..

وفي هدوء رهيب، تقدم حمزة من أبي جهل، ثم استلَّ قوسَهُ وهَوَى بها على رأس أبي جهل فَشَجَّه وأدَمَاه، وقبل أن يُفِيقَ الجالسون من الدهشة، صاح حمزة في أبي جهل:

«أَتَشْتُمُ مُحَمَّدًا، وأنا على دينه أقولُ ما يقول..؟! ألا فَرُدَّ ذَلِكَ عَلَيَّ إن استطعت..»

وفي لحظة، نَسَى الجالسون جميعاً الإهانة التي نزلت بزعيمهم أبي جهل والدم الذي ينزِفُ من رأسه، وشغلتهم تلك الكلمة التي حاقتَ بهم كالصاعقة.. الكلمة التي أعلن بها «حمزة» أنه على دين «محمد» يرى ما يراه، ويقول ما يقوله..

أحمزة يُسَلِّم..؟؟

أَعَزُّ فِتْيَانِ قَرِيشٍ وَأَقْوَاهُمْ شَكِيمَةً..؟؟

إنها الطَّامَّةُ التي لن تملك قريش لها دفعًا.. فإسلام حمزة
سيغري كثيرين من الصُّفوة بالإسلام، وسيجد «محمد» حوله من
القوة والبأس ما يُعزز دعوته ويشدُّ أزره، وتصحو قريش ذات
يوم على هدير المعاول تُحطم أصنامها وألهتها..!!

أجل.. أسلم حمزة، وأعلن على الملأ الأمر الذي كان يطوى
عليه صدره، وترك الجمع الذَّاهِلَ يَجْتَزُّ خيبة أمله، وأبا جهل يلحق
دماءه النازفة من رأسه المشجوج.. ومدَّ حمزة يمينه مرة أخرى إلى
قوسه فثبَّتَها فوق كتفه، واستقبل الطريق إلى داره في خطواته
الثابتة، وبأسه الشديد..!



كان حمزة يحمل عقلًا نافذًا، وضميرًا مستقيمًا..

وحين عاد إلى بيته، ونظَّاه عنه متاعب يومه، جلس يفكر،
ويدير خواطره على هذا الذي حدث من قريب.. كيف أعلن
إسلامه.. ومتى..؟؟

لقد أعلنه في لحظةٍ من لحظات الحمِيَّة، والغضب، والانفعال..
لقد ساءه أن يُساء ابن أخيه، ويُظلم دون أن يجد له ناصرًا،

فغضب له، وأخذته الحمية لشرف بنى هاشم، فَشَجَّ رأس أبى جهل
وصرخ فى وجهه بإسلامه...

ولكن، هل هذا هو الطريق الأمثل لكى يغادر الإنسان دين
آبائه وقومه.. دين الدهور والعصور.. ثم يستقبل ديناً جديداً لم
يختبر بعد تعاليمه، ولا يعرف عن حقيقته إلا قليلاً..

صحيح أنه لا يشك لحظة فى صدق «محمد» ونزاهة قصده..
ولكن أيمكن أن يستقبل أمرؤ ديناً جديداً، بكل ما يفرضه من
مسئوليات وتبعات، فى لحظة غَضَب، مثلما صنع حمزة الآن...؟؟
لقد كان يطوى صدره على احترام هذه الدعوة الجديدة التى
يحمل ابن أخيه لواءها..

ولكن، إذا كان مقدوراً له أن يكون أحد أتباع هذه الدعوة،
المؤمنين بها، والذائدين عنها.. فما الوقت المناسب للدخول فى هذا
الدين..؟

لحظة غَضَب وحمية..؟ أم أوقات تفكير وروية..؟؟
وهكذا فرضت عليه استقامة ضميره، ونزاهة تفكيره أن يُخضع
المسألة كلها من جديد لتفكير صارم ودقيق..
وشرع يفكر.. وقضى أياماً، لا يهدأ له فيها خاطر.. وليالى

لا يرقاً له فيها جفن..

وحين ننشد الحقيقة بواسطة العقل، يفرض الشك نفسه
كوسيلة إلى المعرفة..

وهكذا، لم يكد حمزة يستعمل عقله في بحث قضية الإسلام،
ويوازن بين الدين القديم، والدين الجديد، حتى ثارت في نفسه
شكوك أزعجها الحنين الفطري الموروث إلى دين آبائه.. والتهيب
الفطري الموروث من كل جديد..

واستيقظت كل ذكرياته عن الكعبة، وآلهتها، وأصنامها.. وعن
الأعجاد الدينية التي أفاءتها هذه الآلهة المنحوتة على قريش كلها،
وعلى مكة بأسرها..

وبدا الانسلاخ من هذا التاريخ كله.. وهذا الدين القديم
العريق.. هوة تتعاطم مجتازها..

وعجب «حمزة» كيف يتسنى لإنسان أن يغادر دين آبائه بهذه
السهولة وهذه السرعة.. وندم على ما فعل.. ولكنه واصل رحلة
العقل.. ولما رأى أن العقل وحده لا يكفي لجأ إلى الغيب بكل
إخلاصه وصدقته..

وعند الكعبة، كان يستقبل السماء ضارعاً، مبتهلاً، مستنجداً

بكل ما فى الكون من قدرة ونور؛ كى يهتدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم..

ولنُصغ إليه وهو يروى بقية النبأ فيقول:

«.. ثم أدركنى الندم على فراق دين آبائى وقومى..
وبتٌ من الشك فى أمر عظيم، لا أكتحل بنوم..
» ثم أتيت الكعبة، وتضرَّعتُ إلى الله أن يشرح صدرى
للحق، ويذهب عني الريب.. فاستجاب الله لى وملاً
قلبى يقيناً..

«وغدوتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته
بما كان من أمرى . فدعا الله أن يثبت قلبى على
دينه...».

وهكذا أسلم «حمزة» لإسلام اليقين..

أعز الله الإسلام بحمزة... ووقف شامخاً قوياً يزود عن رسول
الله. وعن المستضعفين من أصحابه..

ورآه أبو جهل يقف فى صفوف المسلمين، فأدرك أنها الحرب
لا محالة، وراح يُحرض قريشاً على إنزال الأذى بالرسول

وصحبه، ومضى يهتف لحرب أهلية يشفى عن طريقها مغايظَه
وأحقاده..

ولم يستطع حمزة - طبعًا - أن يمنع كل الأذى.. ولكن إسلامه
مع ذلك كان وقايةً ودرعًا. كما كان إغراء ناجحًا لكثير من
القبائل التي قادها إسلام حمزة أولاً. ثم إسلام عمر بن الخطاب
بعد ذلك إلى الإسلام فدخلت فيه أفواجا..!!

ومنذ أسلم «حمزة» نذر كل عافيته. وبأسه. وحياته، لله ولدينه
حتى خلع النبي عليه هذا اللقب العظيم:
«أسدُ الله، وأسدُ رسوله»..

وأول سرية خرج فيها المسلمون للقاء عدو، كان أميرها
حمزة...

وأول راية عقدتها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من
المسلمين، كانت لحمزة..

ويوم التقى الجمعان في غزوة «بدر» كان أسدُ الله وأسدُ
رسوله هناك يصنع الأعاجيب..!!

وعادت فلول قريش من بدر إلى مكة تتعثر في هزيمتها

وخبيتها.. ورجع أبو سفيان مخلوع القلب، مطأطئ الرأس. وقد خَلَفَ على أرض المعركة جُثَّتْ سادة قريش، من أمثال أبي جهل.. وعُتْبَةُ بن ربيعة.. وشيبة بن ربيعة.. وأمّية بن خلف. وعُقبَةُ بن أبي مُعيط.. والأسود بن عبد الأسد المخزومي.. والوليد بن عتبة.. والنضر بن الحارث.. والعاص بن سعيد.. وطعمة بن عَدِي.. وعَشْرَات مثلهم من رجال قريش وصناديدها.

وما كانت قريش لتتجرع هذه الهزيمة المنكرة في سلام.. فراحَتْ تُعَدُّ عُدَّتْهَا، وتحشد بأسها وبأسها؛ لتثأر لنفسها ولشرفها ولقتلاها..

وصمّمت قريش على الحرب..

وجاءت غزوة «أُحُد» حيث خرجت قريش على بكرة أبيها، ومعها حلفاؤها من قبائل العرب، بقيادة أبي سفيان مرة أخرى. وكان زعماء قريش يَهْدِفون بمعركتهم الجديدة هذه إلى رجلين اثنين: الرسول عليه صلاة الله وسلامه.. وحمزة رضى الله عنه وأرضاه..

أجل.. والذي كان يسمع أحاديثهم ومؤامراتهم قبل الخروج

للحرب، يرى كيف كان «حمزة» بعد الرسول، بيت القصيد
وهَدَفَ المعركة..

ولقد اختاروا قبل الخروج، الرجل الذى وكلوا إليه أمر حمزة،
وهو عبد حَبَشَى، كان ذا مهارة خارقة فى قَذْفِ الحَرْبَةِ.. جعلوا
كل دوره فى المعركة أن يتصَيَّدَ «حمزة» وَيُصَوِّبَ إليه ضربةً قاتلة
من رمحه، وحذروه من أن ينشغل عن هذه الغاية بشىء آخر، مهما
يكن مصير المعركة واتجاه القتال.

ووعده بثمان غال وعظيم - هو: حُرَّيتَه.. فقد كان الرجل
واسمه «وَحْشَى» عبدًا لجُبَيْرِ بنِ مُطْعَمٍ.. وكان عم جُبَيْرٍ قد لقي
مصرعه يوم بَدَرٍ فقال له جُبَيْرُ:

«اخرج مع الناس، وإن أنت قتلت حمزة فأنت
عتيق»...!

ثم أحالوه إلى «هند بنت عتبة» زوجة أبى سفيان لتزيده
تحريرًا. ودَفَعَا إلى الهدف الذى يريدون..

وكانت هند قد فقدت فى معركة «بدر» أباهَا، وعمها، وأخاها،
وابنها.. وقيل لها إن «حمزة» هو الذى قتل بعض هؤلاء، وأجهَزَ
على البعض الآخر..

من أجل هذا كانت أكثر القرشيين والقرشيَّات تحريضًا على الخروج للحرب، لا لشيء إلا لتظفر برأس حمزة مهما يكن الثمن الذى تتطلبه المغامرة!!..

ولقد لبَّثَ أيامًا قبل الخروج للحرب، ولا عمل لها إلا إفراغ كل حقدِها فى صدر «وَحْشَى» ورسم الدور الذى عليه أن يقوم به..

ولقد وعدته إن هو نجح فى قتل حمزة بأثمن ما تملكه المرأة من متاع وزينة - فلقد أمسكت بأناملها الحاقدة قُرطها اللؤلؤى الثمين وقلاندها الذهبية التى تزدهم حول عنقها، ثم قالت وعيناها تحدقان فى وَحْشَى:

«كُلُّ هذا لك، إن قتلت حمزة»!!..

وسالَ لُعاب وَحْشَى .. وطارَت خواطره تَوَاقَةً مُشْتَاقَةً إلى المعركة التى سيربح فيها حريته، فلا يصير بَعْدُ عَبْدًا أو رقيقًا، والتى سيخرج منها بكل هذا الحلى الذى يُزين عُنقَ زعيمة نساء قريش، وزوجة زعيمها، وابنة سيدها!!..

كانت المؤامرة إذن.. وكانت الحرب كلها تريد «حمزة» رضى الله عنه بشكل واضح وحاسم.

وجاءت غزوة أحد...

والتقى الجيشان.. وتوسط «حمزة» أرض الموت والقتال،
مرتدياً لباس الحرب.. وعلى صدره ريشة النعام التي تعود أن يزين
بها صدره في القتال..

وراح يصول ويجول، لا يريد رأساً، إلا قطعه بسيفه، ومضى
يضرب في المشركين، وكأن المنايا طَوَّعُ أمره، يقذف بها من يشاء
فتصيبه في صميمه..!!

وصال المسلمون جميعاً حتى قاربوا النصر الحاسم.. وحتى
أخذت فلول قريش تنسحب مذعورة هاربة.. ولولا أن ترك
الرماة مكانهم فوق الجبل، ونزلوا إلى أرض المعركة ليجمعوا
غنائم العدو المهزوم.. لولا تركهم مكانهم وفتحهم الثغرة الواسعة
لفرسان قريش لكانت «غزوة أحد» مقبرة لقريش كلها:
رجالها.. ونسائها.. بل وخيلها.. وإبلها..!!

لقد دهم فرسانها المسلمين من ورائهم على حين غفلة،
وأعملوا فيهم سيوفهم الظائمة المجنونة.. وراح المسلمون يجمعون
أنفسهم من جديد، ويحملون سلاحهم الذي كان بعضهم قد وضعه
حين رأى جيش قريش ينسحب ويؤلى الأدبار.. ولكن المفاجأة
كانت قاسية وعنيفة.

ورأى « حمزة » ما حَدَثَ فضاءف قوته ونشاطه وبلاءه..
 وأخذ يضرب عن يمينه وشماله.. وبين يديه ومن خلفه..
 و« وَحْشِيٌّ » هناك يَرْقُبُه، ويتحينُ الفرصة الغادرة ليوجّه نحوه
 ضَرْبَتَه..

وَلَنَدْعُ « وَحْشِيًّا » يصف لنا المشهد بكلماته:

[... وكنتُ رجلاً حَبَشِيًّا، أَقْدَفُ بالحربة قَذَفَ الحبشة،
 فَقَلَمًا أُخْطِئُ بها شيئًا... فلما التَقَى الناس خرجتُ أنظر
 « حمزة » وأتَبَصَّرُهُ حتى رأيته في عرض الناس مثل
 الجَمَلِ الأَوْرَقِ.. يَهْدُ الناسَ بسيفه هَذَا، ما يقف أمامه
 شيء.. « فواللَّهِ إِنِّي لَأَتَّهِيَا لَهُ - أريده، وأستتر منه
 بشجرة لَأَتَقَحَّمَهُ أَوْ لَيَدْنُو مِنِّي، إِذْ تَقَدَّمَنِي إِلَيْهِ « سباعُ
 ابن عبد العزى ». فلما رآه حمزة صاح به: هَلُمَّ إِلَيَّ
 يا ابن مُقْطَعَةِ البُظُور. ثم ضربه ضربة فما أخطأ
 رأسه..

«عندئذ هَزَزْتُ حَرَبِي، حتى إذا رَضِيتُ منها دفعتها
 فَوَقَعْتُ فِي ثُنْتِهِ حتى خَرَجْتُ من بين رجليه.. ونَهَضَ
 نحوي، فغَلَبَ على أمره ثم مات..

«وَأَتَيْتُهُ فَأَخَذْتُ حَرْبِي، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْمَعْسَكِ فَقَعِدْتُ فِيهِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِي فِيهِ حَاجَةٌ - فَقَدْ قَتَلْتُهُ لِأَعْتَقَ...»

ولا بأس في أن ندع «وحشيًا» يكمل حديثه:

[فلما قَدِمْتُ مَكَّةَ أُعْتِقْتُ، ثُمَّ أَقَمْتُ بِهَا حَتَّى دَخَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَهَرَبْتُ إِلَى الطَّائِفِ..

«فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لِيُسَلِّمَ تَعَيَّنَ عَلَى الْمَذَاهِبِ. وَقُلْتُ: أَلْحَقْ بِالشَّامِ، أَوْ الْيَمَنِ، أَوْ سِوَاهَا...»

«فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي ذَلِكَ مِنْ هَمِّي إِذْ قَالَ لِي رَجُلٌ: وَيَحْكُ...!! إِنْ رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَا يَقْتُلُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَدْخُلُ دِينَهُ...»

«فَخَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ فَلَمْ يَرَنِي إِلَّا قَائِمًا أَمَامَهُ أَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ. فَلَمَّا رَأَى قَالَ: أَوْحَشِي أَنْتِ..؟ قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.. قَالَ: فَحَدِّثِي كَيْفَ قَتَلْتَ حِمْرَةَ، فَحَدَّثْتُهُ.. فَلَمَّا فَرَّغْتُ مِنْ حَدِيثِي قَالَ: وَيَحْكُ.. غَيْبٌ

عنى وَجْهَكَ.. فَكُنْتُ أَتَنَكَّبُ طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان؛ لئلا يرانى حتى قبضه الله إليه..

« فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجتُ معهم، وأخذتُ حربتي التى قتلْتُ بها حمزة... فلما التقى الناس رأيتُ مسيلمة الكذاب قائماً، فى يده السيف، فتهيأتُ له، وهزَّزْتُ حربتي، حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه فوقعتُ فيه..

«فإن كُنْتُ قد قتلْتُ بحربتي هذه خير الناس وهو حمزة.. فإنى لأرجو أن يغفر الله لى إذ قتلْتُ بها شرَّ الناس مُسَيْلِمَةَ...»



هكذا سقط أسدُ الله وأسدُ رسوله، شهيداً مجيداً...!!

وكما كانت حياته مُدَوِّيَّةً، كانت موته مُدَوِّيَّةً كذلك... فلم يكتفِ أعداؤه بمقتله.. وكيف يكتفون أو يقنعون، وهم الذين جندوا كل أموال قريش وكل رجالها فى هذه المعركة التى لم يريدوا بها سوى الرسول وعَمَّهُ حمزة...

لقد أمرت «هند بنت عتبة» زوجة أبى سفيان.. أمرت

«وَحْشِيًّا» أن يأتيها بكبد حمزة.. واستجاب الحبشى لهذه الرغبة المسعورة.. وعندما عاد بها إلى هند كان يناولها الكبد بيمناه، ويتلقى منها قرطها وقلائدها يُسْراه، مكافأة له على إنجاز مهمته..

وَمَضَعَتْ هند بنت عتبة الذى صرعه المسلمون ببدر، وزوجة أبي سفيان قائد جيش الشرك والوثنية.. مَضَعَتْ كبد حمزة. راجية أن تشفى تلك الحماقة حقدما وَغَلَّها، ولكن الكبد استعصت على أنيابها. وَأَعْجَزَتْهَا أن تُسَيِّغَهَا. فأخرجتها من فمها، ثم عُلَتْ صخرة مرتفعة، وراحت تصرخ قائلة:

نَحْنُ جَزِينَاكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ والحربُ بعد الحربِ ذاتُ سَعْرِ
ما كان عن عُتْبَةٍ لى من صَبْرٍ ولا أخى، وعمِّه، وبكرى
شَفِيتُ نَفْسِي وَقَضَيْتُ نَذْرِي أزاح وَحْشِي غَلِيلَ صدرى

وانتهت المعركة، وامتنى المشركون إيلَهم، وساقوا خيلَهم قافلين إلى مكة..

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه معه إلى أرض المعركة لينظر شهداءها..

وهناك فى بطن الوادى، وإذ هو يتفحص وجوه أصحابه الذين

باجعوا لله أنفسهم، وقدموها قرايين مبرورة لربهم الكبير. وقف فجأة.. ونظر. فوجم.. وضغط على أسنانه.. وأسبل جفنيه.. فما كان يتصور قط أن يهبط الخلق العربي إلى هذه الوحشية البشعة. فيمثل بجثمان ميت على الصورة التي رأى فيها جثمان عمه الشهيد المجيد «حمزة بن عبد المطلب» أسد الله.. وسيد الشهداء..

وفتح الرسول عينيه التي تألق بريقهما كومض القدر.. وقال وعيناه على جثمان عمه:

«لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَدًا..
وما وقفت موقفاً قط أغبط إلى من موقفي هذا..»
ثم التفت إلى أصحابه وقال:

«لولا أن تحزن صفيّة - أخت حمزة - ويكُونُ سُنَّةً من بعدى، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير.. وَلَئِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَى قَرِيشٍ فِي مَوْطِنٍ مِنَ الْمَوَاطِنِ، لَأَمْتَلَنَّ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ..»

فصاح أصحاب الرسول:

«وَاللَّهِ، لَئِنْ أَظْفَرَنَا اللهُ بِهِمْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، لَنُمَثِّلَنَّ

بهم، مُثَلَّةٌ لَمْ يُثَلِّهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ...!!!»

ولكن الله الذى أكرم «حمزة» بالشهادة، يكرمه مرة أخرى بأن يجعل من مصرعه فرصة لدرس عظيم يحمى العدالة إلى الأبد. ويجعل الرحمة حتى فى العقوبة والقصاص واجباً وفرضاً..

وهكذا لم يكد الرسول صلى الله عليه وسلم يفرغ من إلقاء وعيده السالف حتى جاءه الوحي وهو فى مكانه لم يبرحه بهذه الآيات الكريمة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

وإن عَاقِبَتُهُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنَّ صَبْرَكُمْ لَهِوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ.

وَاصْبِرْ، وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ.

إن الله مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون..﴿

وكان نزول هذه الآيات، فى هذا الموطن، خير تكريم لحمزة الذى وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ..

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُحِبُّه أعظم الحب، فهو كما
ذكرنا من قبل لم يكن عَمَّهُ الحبيب فحسب..

بل كان أخاه من الرضاعة...

وَتَرْبَهُ فِي الطُفُولَةِ..

وَصَدِيقَ الْعَمْرِ كُلِّهِ...

وفي لحظات الوداع هذه، لم يجد الرسول صلى الله عليه وسلم
تَحِيَّةً يُودِّعُهَا خَيْرًا مِنْ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ بِعَدَدِ شُهَدَاءِ الْمَعْرَكَةِ
جَمِيعًا..

وهكذا حُمِّلَ جَثْمَانِ «حَمْزَةٍ» إِلَى مَكَانِ الصَّلَاةِ عَلَى أَرْضِ
الْمَعْرَكَةِ الَّتِي شَهِدَتْ بِلَاةٍ، وَاحْتَضَنْتْ دِمَاءَهُ.. فَصَلَّى عَلَيْهِ الرَّسُولُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ، ثُمَّ جَاءَ بِشَهِيدٍ آخَرَ، فَصَلَّى عَلَيْهِ
الرَّسُولُ.. ثُمَّ رُفِعَ وَتُرِكَ حَمْزَةُ مَكَانِهِ، وَجَاءَ بِشَهِيدٍ ثَالِثٍ فَوَضَعَ
إِلَى جَوَارِ حَمْزَةٍ وَصَلَّى عَلَيْهَا الرَّسُولُ..

وهكذا جَاءَ بِالشُّهَدَاءِ.. شَهِيدٌ بَعْدَ شَهِيدٍ.. وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِّي عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ وَعَلَى حَمْزَةٍ مَعَهُ حَتَّى صَلَّى عَلَى عَمِّهِ
يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ صَلَاةً...

* * *

وينصرف الرسول من المعركة إلى بيته، فيسمع في طريقه نساءً
 بنى عبد الأشهل يَبْكِينَ شهداءَهُنَّ، فيقول عليه الصلاة والسلام
 من فَرَطَ حنانَه وَحُبَّهُ:

«لَكِنَّ حَمَزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ...!!»

ويسمعها «سعد بن معاذ» فيظنُّ أن الرسول صلى الله عليه
 وسلم يطيب نفساً إذا بَكَتِ النساءُ عَمَّهُ، فيسرع إلى نساء بنى
 الأشهل ويأمرُهُنَّ أن يبكين حمزة، فيفعلن.. ولا يكاد الرسول
 يسمع بكاءهن حتى يخرج إليهن، ويقول:

«ما إلى هذا قَصَدْتَ، ارْجِعْنَ يرحمك الله، فلا بُكَاءَ
 بعد اليوم».

ولقد ذهب أصحاب الرسول يتبارون في رثاء «حمزة» وتمجيد
 مناقبه العظمى..

فقال حسان بن ثابت في قصيدة طويلة له:

دَعَّ عَنْكَ دَارًا قَدْ عَفَا رَسْمُهَا	وَابْكِ عَلَى حَمَزَةَ ذِي النَّائِلِ
الْلَّائِسِ الْخَيْلِ إِذَا أَحْجَمَتْ	كَالْلَيْثِ فِي غَابَتِهِ، الْبَاسِلِ
أَبْيَضُ فِي الذَّرْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ	لَمْ يَمِرَّ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ
مَالَ شَهِيدًا بَيْنَ أَسْيَافِكُمْ	شَلَّتْ يَدَا وَحْشِيٍّ مِنْ قَاتِلِ



وقال عبد الله بن رَوَاحَةَ:

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا وما يُغْنِي . البكاء ولا العويل
عَلَى أَسَدِ الْإِلَهِ غَدَاةٌ قَالُوا: أَمْحَزةٌ ذَاكُمُ الرَّجُلُ الْقَتِيلُ
أَصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعًا هناك وقد أَصِيبَ به الرسول
أَبَا يُعْلَى، لَكَ الْأَرْكَانُ هُدَّتْ وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوَصُولُ

وقالت صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخت حمزة:

دَعَاهُ إِلَهُ الْحَقِّ ذُو الْعَرْشِ دَعْوَةً إِلَى جَنَّةٍ يَحْيَا بِهَا، وَسُرُورِ
فَذَلِكَ مَا كُنَّا نَرْجِي وَنَرْجِي لِحَمْزَةٍ يَوْمَ الْحَشْرِ خَيْرَ مَصِيرِ
فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا بَكَاءً وَحُزْنًا، مَحْضَرِي وَمَسِيرِي
عَلَى أَسَدِ اللَّهِ الَّذِي كَانَ مِذْرَهَا يَذُودُ عَنِ الْإِسْلَامِ كُلَّ كَفُورِ
أَقُولُ وَقَدْ أَعْلَى النَعْيُ عَشِيرَتِي جَزَى اللَّهُ خَيْرًا مِنْ أَخٍ وَنَصِيرِ

على أن خيرَ رِثاءٍ عَطَّرَ ذِكْرَاهُ كانت كلمات الرسول له حين وقف على جثمانه ساعةَ رآه بين شهداء المعركة وقال:

«رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، فَإِنَّكَ كُنْتَ - مَا عَلِمْتُ - وَصُولًا
لِلرَّحِمِ، فَعُولًا لِلْخَيْرَاتِ»...

لقد كان مُصاب النبي صلى الله عليه وسلم في عمه العظيم
«حمزة» فادحاً.. وكان العزّاء فيه مُهمة صعبة.. يَدَّ أَنْ الأقدار
كانت تَدخّر لرسول الله أَجَلَ عَزَاء.

ففى طريقه من «أُحُد» إلى داره مرّاً عليه الصلاة والسلام
بسيّدة من بنى دینار استشهد فى المعركة أبوها، وزوجها، وأخوها..
وحین أَبصَرَت المسلمین العائدين من الغزو، سارعتْ نحوهم
تسألهم عن أنباء المعركة..

فنعوا إليها الزوج.. والأب.. والأخ..

وإذا بها تسألهم فى لهفة:

«وماذا فعلَ رسولُ اللَّهِ...؟؟»

قالوا:

«خيراً...»

هو بحمد الله كما تُحيين...!!

قالت:

«أرونيهِ، حتى أنظرَ إليه...!!»

ولبثوا بجوارها حتى اقترب الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما

رأته أقبلت نحوه تقول:

«كلُّ مُصيبة بعدك. أمرها يَهُون»...!!

أَجَلٌ...

لقد كان هذا أَجْمَلَ عَزاء وأبقاه...

ولعلَّ الرُّسول صلى الله عليه وسلم قد ابتسم لهذا المشهد الفدِّ
الفريد، فليس في دنيا البذل، والولاء، والفداء لهذا نظير...
سيدة.. ضعيفة، مسكينة، تفقد في ساعة واحدة أباهَا، وزوجها،
وأخاها... ثمَّ يكون رَدُّها على النَّاعِي لحظة سماعها النِّبأ الذي
يهد الجبال:

«وماذا فعَلَ رُسول الله»...!!؟؟

لقد كان مشهدًا أجاد القَدْرُ رَسْمَه وتوقيته ليُجْعَلَ منه للرَّسول
الكريم صلى الله عليه وسلم عَزَاءٌ أَيْ عَزاء... في أَسَدِ اللَّهِ، وَسَيِّدِ
الشُّهَدَاء...!!